الفكر التربوى فى النظرية الاجتماعية
دراسة تحليلية

للدكتور
مصطفى عبد الرحمن درويش
أستاذ مساعد بكلية التربية
بأسيوط

نشأة الاتجاه الاجتماعى فى التربية :

شهدت بداية القرن العشرين ميلاد حركة عملت على توجيه التربية نحو المجتمع .وقد ترتب على هذه الحركة اتجاهان فى دراسة العلاقة بين التربية والمجتمع . وظهر الاتجاه الأول فى صورة ماعرف باسم «علم الاجتماع التربوى» Education Sociology أما تاريخ استخدام هذا الاصطلاح فى الولايات المتحدة الأمريكية فيرجع إلى الحقبة الأولى من القرن العشرين ، وكان هنرى سوزاللو H. Suzzallo. أول من ألقى محاضرات فى علم الاجتماع التربوى فى عام ١٩٠٧ . كما نشر والترسميث W. Smith. فى عام ١٩١٧ أول مؤلف يحمل هذا الاسم .

هذا الاتجاه تبناه عدد من المشتغلين بالتربية فى كليات إعداد المعلم الذين اعتبروا علم الاجتماع التربوى فرعا من فروع علم التربية ، لأنهم نظروا إلى هذا العلم الجديد كجزء مكمل للأسس التى ينبغى أن تقوم عليها التربية . فقد قامت التربية منذ البداية على أسس مستمدة من الفلسفات الرئيسية ، ثم اتجهت إلى الأخذ بأسس أخرى مستمدة من علم النفس . وكان من الطبيعى العمل على تكملة هذه الأسس بالاتجاه إلى دراسة المجتمع وحاجاته ، وتحليل علاقة التفاعل المتبادل بين الفرد والمجتمع .

غير أن الذين أخذوا بهذا الاتجاه لم يهتموا ، فى البداية ، بوضع إطار نظرى ومنهجى لدراسة العلاقة بين التربية والمجتمع بل اتجهوا إلى دراسة المشكلات المباشرة للمجتمع وحاولوا وضع حلول تربوية لها . لذلك غلب على علم الاجتماع التربوى الطابع الأخلاقى المعيارى. وقد عبر «كوك وكوك» عن وجهة النظر هذه بقولهما إن علم الاجتماع التربوى هو تطبيق للمعرفة

الاجتماعية وأساليبها فى البحث على المشكلات التربوية فى مجالات العلاقات الانسانية والرفاهية المادية . فنحن نهتم بالعملية التربوية ككل فى المدرسة وخارجها حيث يتعلم الأفراد . وعملنا من النوع التطبيقى الهدف منه مساعدة الأفراد على حل القضايا والمشكلات التى تعترض تحقيق أهداف الجماعة (١)

أما الاتجاه الثانى فيفضل أصحابه دراسة العلاقة بين التربية والمجتمع تحت عنوان « اجتماعيات التربيةSociology of Education(٢) . والهدف من اجتماعيات التربية إخضاع دراسة العلاقة بين التربية والمجتمع لنفس الاتجاهات التى تأخذ بها فروع الاجتماع المختلفة . وهذا يعنى دراسة المؤسسات التربوية باتباع نفس النماذج النظرية والأساليب المنهجية العلمية التى توصل إليها علم الاجتماع . لذلك يستمد الباحثون فى هذا الميدان مادتهم من النظرية الاجتماعية ويستخدمون نفس مصطلحات علم الاجتماع ومفاهيمه ، ويتخذون لأنفسهم إطارا مرجعيا أو أكثر من تلك التى يستخدمها علماء الاجتماع المعاصرون مثل : المعايير والنظم الاجتماعية ، المكانة والدور ، عمليات التفاعل الاجتماعى ، الثقافة وعناصرها ، التغير الاجتماعى ، وغيرها .

وقد ساعد على نشأة الاتجاه الاجتماعى فى التربية ونموه عاملان رئيسيان فمن ناحية تدعمت النظم والمبادئ الديموقراطية ، ومن المعروف أن الديموقراطية وإن كانت تهتم بالفرد وتقدر ذكاءه واستعداداته وتعمل على تنميتها إلى أقصى حد ممكن ، فهى أيضا نظام اجتماعى يقوم على توسيع دائرة المصالح المشتركة ووضع الفرد فى المكان المناسب بقصد تمكينه من إشباع حاجاته وخدمة مصالح الجماعة . كما تقوم الديموقراطية على أساس اقتصادى يرمى إلى تحقيق رفاهية الفرد والمجتمع واقامة الحياة الإقتصادية على حرية الإنتاج وعدالة

---

1 . Cook, L.A.&Cook, E.F., A Sociological Approach to Educati'on New York Mc Graw-Hill 1950, p. 10.

(٢) لم يعد إصطلاح الاجتماع التربوى قائما فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة .

التوزيع .وهكذا وجهت النظم الديموقراطية الفكر التربوى لاإلى الفرد كفرد بل كعضو فى مجتمع ، فربطت بين التربية والمجتمع عن هذا الطريق .

ومن ناحية أخرى ظهر علم الاجتماع فى صورة جديدة فحقق للمجتمع ما حققه علم النفس للفرد . فقد اتجه علماء الاجتماع إلى دراسة الظواهر الاجتماعية ، وطبيعة المجتمع ، والتغير الاجتماعى ، والثقافة ، فاتضحت وظيفة المجتمع وتأكدت أهميته . ومن هنا وجه علماء الاجتماع نظر رجال التربية إلى المجتمع وإلى أهميته كموجه من موجهات التربية ، وإلى إقامة التربية على أسس اجتماعية لاعلى أسس فردية بحتة .

والحقيقة أن الاتجاه الاجتماعى فى التربية ارتبط — أكثر من أى شىء آخر — بعلم الاجتماع الحديث . ويعتبر اميل دوركيم E.Durkheim (١٨٥٨ — ١٩١٧) وماكس فيبر (١٨٦٤ — ١٩٢٠) المؤسسين الحقيقيين لاجتماعيات التربية كميدان يتناول بالدراسة والتحليل العلاقة بين التربية والمجتمع . (١) ومع ذلك ينبغى ألا نغفل ذكر بعض الجهود السابقة عليهما. ففى الولايات المتحدة الأمريكية نشر ليستروارد L. Ward.فى عام ١٨٨٣ مؤلفا بعنوان علم الاجتماع الديناميكى Dynamic Sociologn أكد الوظيفة الاجتماعية للتربية ودورها فى تحقيق تقدم المجتمع ورفاهيته وكان مؤلف «وارد» مجرد البداية لكثير من المؤلفات التى اتخذت طابعا إصلاحيا براجماتيا . ومهما كانت الآثار التى تركتها هذه المؤلفات على التطبيق التربوى فى ذلك الوقت ، فانها لم تستند إلى نظريات اجتماعية يمكن فى إطارها تحليل العلاقة بين التربية والمجتمع .

وحتى نتبين الدور الحقيقى للنظرية الاجتماعية فى نشأة الفكر الاجتماعى فى التربيه نرى ضرورة درس المضامين التربوية للنظرية الاجتماعية عند كل من اميل دوركيم وماكس فيبر باعتبارهما من الرواد فى هذا الميدان

---

1. Bidwell, C. Sociology of Education in Encyclopedia of Educational Research London Macmillan Co., 1969, P. 1242.

وسوف يقتصر هذا الجزء من الدراسة على تناول الفكر التربوى فى النظرية الاجتماعية عند اميل دوركيم ، على أن ينشر الجزء الخاص بماكس فيبر فى عدد آخر من هذه المجلة .

أولا : اميل دوركيم

ينفرد دوركيم — من بين علماء الاجتماع الكلاسيكيين — بأنه قدم تحليلا للعمليه التربوية كجزء متكامل من نظريته الاجتماعية العامة . كما أنه على العكس من ماكس فيبر ، قد خلف لنا عدة مؤلفات تناولت موضوع التربية بصفه مباشرة . وبالرغم من ذلك فإن الفكر التربوى لدوركيم لم يلق من مؤرخى التربية نفس الاهتمام الذى يوليه علماء الاجتماع لتحليل نظريته الاجتماعية العامة

غير أننا نلاحظ — خلال العشرين عاما الأخيرة — اهتماما واضحا بدراسة الفكر التربوى لدوركيم . ويتمثل هذا الاهتمام فى ترجمة تراثه التربوى وتناوله بالدراسة والتحليل . فقد ظهرت الترجمات الأمريكية الحديثة لكتابيه « التربيه الأخلاقية Moral Education » و « التربية وعلم الاجتماع « Education and Sociology » فى عام ١٩٥٦ . هذا بالإضافة إلى ظهور الترجمة الانجليزية لكتابه « التطور البيداجوجى فى فرنسا L'évolution Pédagogique en France فى عام ١٩٧٦ . ولاشك أن ظهور هذه الترجمة الانجليزية سياقى — على حد تعبير كارابل هالسى — كثيرا من الضوء على إسهام دوركيم الحقيقى فى مجال اجتماعيات التربية (١)

التربية كظاهرة اجتماعية :

كثيرا مايوصف منهج دوركيم فى علم الاجتماع بأنه «نزعة سوسيولوجية واقعية » ، (٢) بمعنى أنه أعطى للمجتمع واقعا اجتماعيا مطلقا بدلا من الفرد .

---

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع — طبيعتها وتطورها ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٢ (ترجمة محمد عودة وآخرين) ص ١٥٩ .

(٢) Karabel, J.& Halsey, A.H. (eds.), Fower and Ideology in Education, New York, Oxford University Press, 1977, p. 88.

وهذا يجعل نظريته تقف فى تعارض واضح مع النزعة الفردية عند سبنسر H. Spencer ، ولعل ذلك يرجع إلى ماذهب إليه دوركيم من أن الظواهر الاجتماعية لايمكن إرجاعها إلى ظواهر فردية ، فثمة ظواهر فى الحياة الاجتماعية يتعذر تفسيرها فى ضوء التحليل السيكولوجى أو الطبيعى : ذلك أن هناك أنماطا من السلوك وضروب التفكير والشعور تتميز بأنها خارجه عن شعور الفرد ، وهو مجبر على الخضوع لها فى كل لحظة من لحظات حياته . وهى « أشياء » ذات وجود قائم بنفسه يجدها الفرد تامة التكوين منذ ولادته ؛ ومن العسير القضاء عليها أوتغييرها .

وتستمد الظواهر الاجتماعية أصولها من المظاهر الجمعية للمعتقدات والممارسات الجماعية ، فالفكرة التى تولد فى شعور الفرد لاتكتسب صفة « الاجتماعية » . لذلك يجب التميز بين الظواهر الفردية والظواهر الاجتماعية حيث تشير الأخيرة إلى ضروب معينة من السلوك والتفكير والشعور يتحقق لها الاستمرار فتتبلور كأنماط عامة متميزة عن الظواهر الجزئية الفردية .

وليس معنى ذلك — على حد تعبير دوركيم — أن الظواهر الاجتماعية أشياء مادية ، ولكنها جديرة بأن توصف بأنها أشياء كالظواهر الطبيعية تماما . بل معنى ذلك «أننا نسلك حيالها سلوكاً عقليا خاصا ، أى أننا نأخذ فى دراستها وقد تمسكنا بهذا المبدأ الآتى : هو أننا نجهل كل شئ عن حقيقتها ، وأننا لانستطيع الكشف عن خواصها الذاتية أو عن الأسباب المجهولة التى تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية » (١) ولذلك يمكن الكشف عن الظواهر الاجتماعيةبطريقتين : الأولى من خلال القوة القاهرة التى تمارسها على الأفراد ، والتى تتجلى بصفة عامة فى الجزاءات المصاحبة لأنماط السلوك : اما الطريقة الثانية فتتمثل فى انتشارها وعموميتها .

---

(١) اميل دوركيم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٠ (ترجمة محمود قاسم) ، ص ٩ .

فى ضوء ماتقدم نستطيع أن نشير إلى مفهوم دوركيم للظاهرة الاجتماعية حيث يعرفها بأنها « كل ضرب من ضروب السلوك ، ثابتا كان أم غير ثابت ، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجى على الأفراد . أو هى كل سلوك يعم المجتمع بأسره ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها فى الحالات الفردية»(١) .ومعنى هذا أن الظاهرة الإجتماعية خارجة عن شعور الفرد وليست من صنعه ، هذا بالإضافة إلى أنها جبرية ، أى تفرض نفسها عليه سواء رغب فى ذلك أم لم يرغب .

والتربية باعتبارها ظاهرة اجتماعية،من حيث أصلها ووظيفتها؛ تتسم أيضا بسمة « الإجتماعية » وخاصية القهر . وعنصر القهر هذا أساسى فى التربية ، لذلك يعرف دوركيم التربية بأنها « ذلك الضغط الذى تمارسةأجيال الكبار على الصغار الذين لم يستعدوا بعد للحياة الاجتماعية. وهدف التربية هو أن تثير وأن تنمى لدى الطفل عددا من الحالات الجسمية والعقلية والأخلاقية التى يتطلبها المجتمع السياسى ككل ، والوسط الاجتماعى المقدر له الحياة فيه بصفة خاصة » . (٢) فمنذ اللحظة الأولى التى يخرج فيها الطفل إلى الحياة يحاول الكبار اخضاعه لنظم خاصة فى المأكل والنوم ويجبرونه على تعود النظافة والنظام . ثم اذا شب قليلا أجبروه على مراعاة الغير واحترام العادات والتقاليد المتبعة ، ثم يضغطون عليه لأداء نوع معين من العمل ، وهكذا . هذا الضغط الذى يتعرض له الطفل فى كل مرحلة من مراحل حياته ليس الا ضغط المجتمع الذى يحاول أن يطبعه بطابعه الخاص ، وما الآباء والمعلمون إلا ممثلون لرغبات المجتمع .

اجتماعية الأهداف التربوية :

وطبقا لهذا التصور لطبيعة التربية نجد أن دوركيم يرفض الأهداف الفردية البحتة للتربية ، والتى اتجه بعض المفكرين إلى الأخذ بها . ونشير هنا

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦–٤٧ .

(2) Durkeim, E., Eduction and Socialogy, New york, Free Press, 1956,p.71.

بصفه خاصة إلى ماذهب إليه الفليسوف كانط Kant حين قال ان « الغرض من التربية هو أن تصل بقدرات الفرد إلى أقصى درجات الكمال الممكنة » ؛ كذلك قول جون ستيوارت ميل J. S. Mill بأن « الغرض من التربية هو ان تجعل من الفرد وسيلة لتحقيق السعادة لنفسه ».

ويذهب دوركيم إلى أن التربية بالنسبة لكانط وميل وسبنسر عملية فردية وهى بالتالى ذات صلة وثيقة ومباشرة بعلم النفس ، هدفها أن يتحقق كمال الخصائص العامة التى تميز الانسانية ككل . فقد افترض هؤلاء وجود طبيعة بشرية ثابتة قد تحددت بصفة نهائية ، لذلك رأوا ضرورة وجود نمط موحد من التربية يتفق مع هذه الطبيعة يلائم جميع الأفراد بغض النظر عن الظروف التاريخيه والاجتماعية المحيطة بالفرد . لذلك فان المشكلة التربوية تتلخص — فى نظر هؤلاء — فى كيفية إحداث التأثير المرغوب فيه فى هذه الطبيعة البشرية المحددة . ولذلك فان القائم على العملية التربوية ينحصر دوره فى التعرف على ملكات الفرد الطبيعية وتنميتها والحيلولة بينها وبين الانحراف عن مسارها الطبيعى . والعلم الذى يفى بحاجات المربى هو علم النفس ، فهو العلم الذى يختص بوصف الطبيعة البشرية وتفسيرها .

غير أن دوركيم — فى رده على هذه الفئة من المفكرين — يؤكد أن أحدا لا يمكنه أن يحدد كيف يمكن أن يكون الانسان أو ماينبغى أن يكون عليه ، فالكائن البشرى يتشكل تدريجيا أثناء عملية النمو البطئ التى تبدأ منذ ميلاده والتى تكتمل عند بلوغه مرحلة النضج . لذلك لايمكن ان ينحصر هدف التربية فى مجرد الاستجابة لحاجات الفرد واهتماماته . فالتربية قبل كل شئ هى الأساليب والطرق التى يخلق بها المجتمع الظروف لبقائه واستمراره ، وهدفها مساعدة الفرد على أن يتلاءم مع النظام الاجتماعى وذلك باكساب الطفل — وهو صفحة بيضاء اجتماعيا — المعايير والقيم والعادات والتقاليد وغيرها مما يساعده على التكيف مع محيطه الاجتماعى . وقد يكون هذا الوسط الاجتماعى المجتمع الأكبر ، أو الطبقة التى ينتمى إليها الفرد أو حتى البيئة المحلية التى يعيش فيها .

كذلك ينبع الهدف الإجتماعى للتربية من تصور دوركيم للطبيعة البشرية فالانسان عنده « مخلوق مزدوج » (١) :

(ا) الانسان الفردى : ويتكون من جميع الحالات العقلية والأحاسيس التى تنتمى إلى ذاته وإلى الأحداث التى تتعلق بحياته الشخصية، وهذا الانسان هو موضوع علم النفس .

(ب) الانسان الاجتماعى : وهو نظام من الأفكار والأحاسيس — التى لاتنتمى إلى الفرد بل إلى الجماعة أو الجماعات التى هو جزء منها — وتشمل التقاليد والعادات ، والقيم والسلوك الأخلاقى؛ والتقاليد المهنية وغيرها . وهذه تكون فى مجموعها الانسانى الاجتماعى الذى يشكل مركز الاهتمام فى التربية .

وبعبارة أخرى الوظيفة الرئيسية للتربية هى التنشئة الاجتماعية Socialization فالانسان يولد كائنا بيولوجيا ، وعملية التنشئة الاجتماعية هى التى تحوله إلى كائن اجتماعى. وتظهر هذه الفكرة فى أشكال شتى فى معظم مؤلفات دوركيم ، فنراه يقول فى كتابه التربية والاجتماع « اذا جردنا الانسان مما اكتسبه من المجتمع فإنه يهبط إلى مصاف الحيوان » . ويقول فى قواعد المنهج فى علم الاجتماع « ان الموضوع الحقيقى للتربية ليس شيئا آخر غير إعداد الكائن الاجتماعى » . ويعبر عن نفس الفكرة فى كتابه التربية الأخلاقية بقوله « ان لدينا مشاعر عديدة تعبر فينا عن شىء غير ذاتيتنا ، هو المجتمع . وماهذه المشاعر الا المجتمع ذاته يحيا ويؤثر فينـــا . . . إنه حقا خارج عنا محيط بنا ، ولكنه كذلك فينا » (٢) . فالحقيقة الرئيسية فى نظرية دوركيم الاجتماعية هى أن الفرد يصبح انسانا

---

(١) Ibid., p. 115.

(٢) اميل دوركيم ، التربية الأخلاقية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، د ، ت ، (ترجمة السيد محمد بدوى) ، ص ٥٧ .

اجتماعيا اثناء عملية التفاعل مع الآخرين وأن المجتمع هو الذى يسخر التربية لكى تغرس فى كل منا جانبا أو أكثر من ذاته (المجتمع) ، أى أن المجتمع هو الذى يخلق الانسان الاجتماعى .

واذا كان الانسان لايميل بطبعه إلى الخضوع للسلطة السياسية ، فهل معنى هذا أن المجتمع عندما « يشكل الأفراد طبقا لحاجاته » أن الأفراد أصبحوا خاضعين « لاستبداد » المجتمع ؟ يجيب دوركيم على ذلك بالنفى ، فالواقع يشير إلى قبول الأفراد لخضوعهم للمجتمع « لأن هذا المخلوق الجديد الذى يبنيه ذلك التأثير الجمعى فينا من خلال التربية يمثل ماهو أفضل بالنسبة لنا »(١).

وهكذا يجعل دوركيم من كل مايفوضه الأفراد للمجتمع فضائل مشروعة يتقبلها كل فرد فيه عن طيب خاطر. وفى عبارة دوركيم « أن المجتمع . . . هو الذى يستلنا من أنفسنا ، وهو الذى يرغمنا على أن نأخذ فى الاعتبار مصالح الآخرين قبل مصالحنا ، وهو الذى يعلمنا ضبط مشاعرنا وغرائزنا . . . وتصبح وظيفة التربية العمل على غرس قيم التضحية بالذات والتبعية والخضوع لتحقيق الأهداف العليا للمجتمع »(٢). أى أن الوظيفة الرئيسية للمدرسة هى مساعدة الفرد على اخضاع اهتماماته للضبط الاجتماعى ، الأمر الذى يؤدى إلى تحقيق انسانيته .

التربية والتضامن الاجتماعى :

كذلك نستطيع أن نتبين حتمية الوظيفة الاجتماعية للتربية عند دوركيم فى ضوء تحليله لظاهرة « التضامن الاجتماعى . Social Solidarity » وتقسيم العمل . وقد يبدو من عنوان كتابه « تقسيم العمل فى المجتمع The Division of Labort Society » أنه ينصب أساسا

---

(١) Durkheim, E., op. cit., p. 76.

(٢) Ibid., P. 76.

على الجوانب الاقتصادية لتقسيم العمل . غير أن معالجته لتقسيم العمل تؤكد عدة أمور(١) :

١ — أنه يهتم بظاهرة تقسيم العمل « كحقيقة أخلاقية » أكثر منها ظاهرة اقتصاديه .

٢ — أنه يرى أن التغير السريع فى طبيعة هذه الظاهرة هو المسئول عن اضطراب « التضامن الاجتماعى » فى المجتمع الصناعى المعاصر .

٣ — تمثل ظاهرة نقسيم العمل بالنسبة لدوركيم الحالة التى يتحول فيها المجتمع من مجتمع تقليدى مستقر إلى حالة من التعقد والارتباط التعاقدى التى تتميز بعدم الاستقرار والفوضى وإحساس الفرد بعزلته عن المجتمع .

٤ — تتميز دراسته لظاهرة نقسيم العمل بأنها معالجة شاملة للأزمات السياسية والأخلاقية التى تعانى منها المجتمعات عندما تتحول من مجتمعات زراعية بسيطة إلى مجتمعات صناعية رأسمالية معقدة التركيب .

وقد استخلص دوركيم من دراساته المقارنة للمجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة أن المجتمعات التقليدية تتميز بالتجانس لأن تقسيم العمل يكون فى حالة بدائية .لذلك يرتبط الأفراد فى هذا المجتمع بما أسماه دوركيم « التضامن الآلى » الذى يتميز فيه الأفراد بالخضوع التلقائى للعادات والتقاليد العمل وتشابه انماط سلوكهم ، كما يختفى فى هذا المجتمع عنصر الفردية .أما فى المجتمعات المعاصرة ،التى تتميز بتعقد ظاهرة تقسيم العمل فيختفى هذا التشابه ، كما يزداد بين الأفراد الشعور بالفردية ويصبحون أكثر تحررا من قيود التقاليد. لذلك يرتبط الأفراد فى مثل هذه المجتمعات عن طريق « التضامن العضوى » الناجم عن تقسيم العمل حيث يشعر كل فرد بحاجته إلى خدمات الآخرين وباستحالة الحياة بدون تعاونهم . وهكذا يعتمد «التضامن العضوى » على التباين بين أعضاء المجتمع ، بينما يستمد «التضامن الآلى » أسسه من التماثل .

Fletcher R., The Making of Sociology -Astudy of Sociological Theory, London, Nelson & Sons, 1971, Vol. II, p. 358.

غير أن دوركيم يفترض أن الوظيفة « الطبيعية » لتقسيم العمل هى تدعيم «التضامن الاجتماعى » . أما فى المجتمعات الصناعية فقد أصبح تقسيم العمل ظاهرة « مرضية » (بفتح الراء) لاتؤدى إلى تماسك المجتمع والنظام الأخلاقى ، بل إلى حالة «غير طبيعية » من الإخلال بالنظام والفوضى الأخلاقية(١). كما تقل فى هذه المجتمعات أهمية «الضمير الجمعى collective conscience »(٢) أما فى مجتمع « التضامن الآلى » فيكون « الضمير الجمعى » أكثر أثرا على عقول الأفراد وأخلاقياتهم ، كما أنه يمارس ضغطا أكبر على سلوكهم . وهكذا تقوم نظرية دوركيم فى التغير الاجتماعى فى جزء رئيسى منها — على نظريته فى التعقد المتزايد لظاهرة تقسيم العمل.

هذا التغير الاجتماعى لابد وأن ينعكس على المؤسسات التربوية ، إذ ان النظام التعليمى ليس الا مجموعة من النظم الاجتماعية التى لاتنفصم عن المجتمع ، والتى تتغير بتغير البناء الإجتماعى الذى يحتويها. وإذا كان دوركيم قد اهتم بالبحث فى أصول القيم الأخلاقية التى تشكل — فى رأيه — قاعدة النظام الاجتماعى ، فانه درس النظم التربوية لالقاء الضوء على العملية التى يتحقق من خلالهـــا تماسك المجتمع . ومعنى هذا أن دوركيم لم ينظر إلى التغير التربوى على أنه مجرد انعكاس فحسب لمـــا يطرأ على بنية المجتمع وثقافته من تغير ، بل على أنه أداة فعالة فى احداث هذا التغير .

ويبرز دور التربية فى مجتمع « التضامن العضوى » بصفة خاصة ، فالتربية — كما أشرنا من قبل — هى أداة المجتمع التى يخلق بها الظروف الضرورية لبقائه واستمرار وجوده . وإذا كان المجتمع لايمكن أن يستمر دون تضامن أعضائه ، وإذا كان تقسيم العمل قد يؤدى إلى حالة من الفردية والفوضى الأخلاقية ، فان على التربية أن تعمل على تدعيم « التضامن

(I) Zaitlin, I.M., Ideology and the Development of pociological Theory New Delhi Prentice-Hall of India, 1969, p. 246.

(٢) يعرف دوركيم الضمير الجمعى بأنه « مجموعة المعتقدات والمشاعر المشتركة بين أعضاء المجتمع ، والتى تشكل نسقا قائما بذاته » .

الاجتماعى » واستمراره بأن تحدد مقدما فى أذهان الصغار مجموعة القيم التى تتطلبها الحياة فى المجتمع المتغير فالمجتمع بالنسبة لدوركيم هو أعظم الغايات؛ وعلى تكيف الأفراد مع وسطهم الاجتماعى يتوقف تماسك المجتمع وترابطه . لذلك يلزم دوركيم الدولة بأن « تذكر المعلم دائما بالأفكار والمشاعر التى ينبغى طبع الطفل عليها حتى يتكيف مع الوسط الاجتماعى الذى ينبغى أن يعيش فيه»(١).

وهكذا نجد أن اهتمام دوركيم بموضوع « التضامن الاجتماعى » ، والكشف عن العوامل المؤثرة فيه ، قاده بالتدريج إلى نتيجة مؤداها ان بنية المجتمع ترتكز إلى أنماط السلوك التى تنبع من المعتقدات والقيم التى أصبحت جزءا متكاملا من النظام الاجتماعى ، والتى تنعكس على كل عضو من أعضاء المجتمع ؛ وهذا يؤدى بدوره إلى احساس عام بالوحدة عبر عنه دوركيم « بالضمير الجمعى » ويعنى بذلك أن « التضامن الاجتماعى » يعتمد على درجة احساس الأفراد بالتزاماتهم تجاه المجتمع وعلى مدى خضوعهم للقيم وأنماط السلوك المتفق عليها.

وكان من الطبيعى أن ينصرف دوركيم إلى وضع علم للأخلاق يتمشى مع ظروف مجتمع تقسيم العمل المتغير . ولذلك يحتل موضوع الأخلاق والتربية الأخلاقية مكانا بارزا من الفكر الاجتماعى والتربوى عند دوركيم غير أنه يقرر صراحة أن هدفه ليس وضع علم عام للأخلاق ، اذ يستحيل وجود أخلاقيات مطلقة تصلح لكل العصور ولكل المجتمعات ، وإنما هدفه وضع علم للأخلاق يصلح « للرجل الذى يعيش فى وقتنا هذا وفى بلدنا هذا (فرنسا) » (٢).

المجتمع كمصدر للقيم الأخلاقية :

إن هدف دوركيم هو تحقيق« التضامن الاجتماعى » القائم على التكامل الأخلاقى وهو يبنى هذا التكامل على الأخلاق العلمانية التى تقوم على العقل

I) Durkheim, E., op.cit., p. 79.

(٢) اميل دوركيم ، التربية الأخلاقية ، ص ٦ .

وليس على الدين . فالتغيير الاجتماعى يقتضى فى رأيه أن تكون التربية الخلقية ذات صبغة علمانية بحتة ، «أى ترتكز إلى أفكار ومبادئ يبررها العقل وحده » . فالحقيقة الأخلاقية هى بالضرورة حقيقة اجتماعية . والمجتمع هو غاية كل فعل أخلاقى ومصدر كل القواعد والقيم الخلقية ، وذلك « لأن الأسباب التى دعت إلى إنشاء أخلاق وتربية زمنية ترتبط بالعناصر الأساسية لمجتمعنا الحالى برباط وثيق يؤثر لامحالة فى مادة الأخلاق نفسها وفى محتويات واجباتنا »(١) . وبعبارة أخرى يرى دوركيم ضرورة توظيف العقل لاكتشاف القوى الأخلاقية فى المجتمع والبحث عن أفضل توجيه لها فى ظل الظروف التى يمر بها المجتمع .

المدرسة كمؤسسة للتربية الأخلاقية :

أما المكان الطبيعى الذى ينبغى أن تتم فيه التربية الأخلاقية فهو المدرسة وليس الأسرة : «فالمدارس العامة بحكم وضعها هى الأداة المنظمة للتربية . . . وعلى العكس مما يشاع كثيرا من أن الأسرة هى التى ينبغى أن تضطلع وحدها بعبء التربية الخلقية فإنى أقرر أن ما تقوم به المدرسة من التكوين الخلقى للطفل يمكن بل يجب أن يكون على غاية كبيرة من الأهمية ، فإن جزءا كبيرا من الثقافة الأخلاقية بل أهم جزء فيها لا يمكن تلقينه فى أى مكان آخر . فلو استطاعت الأسرة وحدها أن توقظ وتنمى العواطف الأسرية اللازمة للحياة الخلقية أو بمعنى أعم التى تكون أساس العلاقات الفردية البسيطة ، فإن هذه الأسرة بحكم تكوينها البسيط . . . لا تستطيع أن تكون أداة صالحة لإعداد الطفل للقيام بواجباته فى الحياة الاجتماعية»(٢).

أما القيم الرئيسية التى ينبغى أن تعمل المدرسة على تنميتها فهى النظام ، والولاء للمجتمع ، وحرية الإرادة . وهى قيم لا تعارض بينها فى نظر دوركيم ، بل أنه يرى أن الإلتزام بها يحقق الاستقرار لكل الفرد من المجتمع ويؤدى فى نهاية الأمر إلى تضامن المجتمع وتماسكه .

---

(١) اميل دوركيم ، نفس المصدر ، ص ١٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩—٢٠ .

المحتوى الاجتماعى للعملية التربوية :

إذا كان تقسيم العمل فى المجتمع يمثل اضافات محدودة نسبيا من جانب دوركيم إلى اجتماعات التربية ، فإن كتابه « التطور البيدا جوجى فى فرنسا »(١) يمثل أكبر إضافاته إلى هذا الميدان . هذا الكتاب كان فى الأصل مجموعة من المحاضرات التى ألقاها دوركيم فى الفترة من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٥ ، ولم ينشر إلا فى عام ١٩٣٨ .

ويركز دوركيم فى هذا الكتاب على تحليل محتوى العملية التربوية كما تتم فى المدرسة دون أن يتجاهل المحتوى الاجتماعى المحيط بالمدرسة . فقد تناول فيه التربية فى فرنسا منذ عهد ما أسماه « الكنيسة البدائية » إلى عهد الجمهورية الثالثة محللا « الأفكار البيداجوجية » التى تتضمن ليس فقط المناهج الشكلية بل أيضا محتواها المعرفى وطرق نقلها إلى التلاميذ وأساليب تقويمهم .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تحليل دوركيم للمحتوى الاجتماعى للعملية التربوية يقترب كثيرا مما يقوم به علماء التربية فى الوقت الحاضر عند تحليلهم للعلاقة بين التربية والمجتمع . إذ يعتمد دوركيم فى هذه الدراسة التاريخية على فرض مؤداه أن « التحولات البيداجوجية هى دائما نتيجة للتحولات الاجتماعية ودلالة عليها »(٢) فقد رأى دوركيم استحالة فهم التغير فى العملية التربوية دون تحليل للحركات الاجتماعية الكبرى المعاصرة لها .

فقد اهتم دوركيم فى دراسته التفصيلية للمؤسسات التربوية للجزويت بالكشف عن قوى الضبط الاجتماعى التى تضمنها نظامهم التربوى . وقد أرجع نجاح النظام الصارم للجزويت إلى مبدأين أساسيين : الأول الأشراف الشخصى والاهتمام الفردى بالمتعلم . فى ضوء هذا المبدأ استطاع

---

(١) اعتمد فى هذا العرض على المختارات المترجمة من الفصل الثانى الكتاب كما جاءت فى : Karabel, J. & Halsey, H.A. (eds.), op. cit. cit. p 92-105.

(٢) Ibid. p 92

المعلم من الجزويت أن يوجه السلوك الخلقى للمتعلم ، وأن يكشف عن شخصيته وعاداته ،وأن يختار أفضل طرق التدريس التى تتمشى مع حاجاته ، وأن يغرس فى نفسه مبادئ الكنيسة . أما المبدأ الثانى فهو تشجيع المنافسة بإرساء أخلاقياتها وتدعيم التطلع الفردى إلى التفوق والامتياز الأكاديمى. غير أن هذا النظام المدرسى لم يكن اكتشافا عشوائيا للجزويت بل كان نتيجة للاتجاه العام المتزايد نحو الفردية التى تميز بها عصرهم ، والذى يمكن إرجاعه إلى الحركة الانسانية للنهضة المبكرة .

وقد اتبع دوركيم نفس الأسلوب فى تحليله للفكر والتطبيق التربويين فى الفترات التاريخية المختلفة . ويكون دوركيم بذلك قد استحدث نمطا متميزا لتحليل المحتوى الاجتماعى للعملية التربوية . هذا النمط يشكل نموذجا يمكن أن تتم فى إطاره الدراسة التحليلية المعاصرة للعلاقة بين التربية والمجتمع .

علم الاجتماع والتربية :

فإذا كانت التربية ظاهرة اجتماعية من حيث أصولها ووظيفتها ،وإذا كان هدفها تكوين الإنسان الاجتماعى ، وإذا كانت المدرسة هى أداة المجتمع التى يخلق بها الظروف الضرورية لبقائه وتماسكه ، فان التربية ينبغى أن تعتمد على علم الاجتماع أكثر من اعتمادها على أى علم آخر . لذلك يذهب دوركيم إلى أن علم الاجتماع وحده ، وليس علم النفس هو الذى يساعدنا على فهم أهداف التربية وذلك بنسبة هذه الأهداف إلى الأوضاع والظروف الاجتماعية ، واكتشاف أهداف التربية وتحديدها عندما يعجز الرأى العام عن اكتشافها وتحديدها . هذا بالإضافة إلى أنه يساعدنا على فهم المجتمع ، وكلما كان فهمنا للمجتمع أفضل كلما أصبحنا أكثر قدرة على فهم ما يحدث داخل هذا «الميكروزوم الاجتماعى Social microsome» الذى هو المدرسة .

وقد يساعدنا علم النفس على تحديد الوسائل التى تتبعها التربية . ولكن علم النفس لايستطيع أن يؤدى دوره هذا دون الاستعانة بعلم الاجتماع للأسباب الآتية :

(ا) إن أهداف التربية اجتماعية فى طبيعتها ، ولذلك فان وسائل تحقيق هذه الأهداف ينبغى أن تحمل نفس الصفة .

(ب) إن أثر الأوضاع الاجتماعية لا ينحصر فى تحديد الأهداف ، بل وفى تحديد الوسائل لأن طبيعة الهدف تتضمن ، جزئيا ، طبيعة الوسائل .

(ج) إن المؤسسات التربوية كلها ، وبدون استثناء ، لابد وأن تعكس نظاما اجتماعيا بعينه تحرص على تحقيق خصائصه الرئيسية ، ولو بصورة مصغرة أو مختصرة .

(د) إن النظام المدرسى غالبا ما يعكس النظام السائد فى المجتمع .

(هـ) إن القواعد التى تنظم سلوك التلميذ فى المدرسة لا تختلف كثيرا عن تلك التى تحدد سلوكه عندما يصبح بالغا .

نظرة نقدية :

فى ضوء هذا العرض للمضامين التربوية للنظرية الاجتماعية عند دوركيم يمكن أن نسجل الملاحظات الآتية :

١ — أعطى دوركيم للتربية ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، واقعا اجتماعيا ، بمعنى امكان دراستها باخضاعها لنفس أسلوب البحث فى الظواهر الطبيعية .

٢ — أعطى دوركيم للطبيعة البشرية بعدا اجتماعيا وجعل التنشئة الاجتماعية وخلق الإنسان الاجتماعى الوظيفة الرئيسية للتربية .

٣ — ركز دوركيم اهتمامه على المجتمع كموجه من موجهات العملية التربوية : فالتغير الاجتماعى لابد وأن ينعكس على العملية التربوية ، والمدرسة ينبغى أن تعمل على تماسك المجتمع المتغير بتشكيل الفرد طبقا لحاجات المجتمع واخضاعه لغاياته . هذا بالإضافة الى أن دوركيم نظر الى المجتمع باعتباره المصدر الرئيسى للقيم الأخلاقية ، وأكد دور المدرسة فى العمل على تنمية هذه القيم . غير أنه يؤخذ على دوركيم الآتى :

(ا) أنه وصل الى درجة من الواقعية السوسيولوجية كادت أن تطمس معها الأهمية الاجتماعية للارادة الفردية . فإذا كان المجتمع حقيقة واقعية ، فإن للفرد كذلك وجوده الواقعى ، وهما أيضا فى تفاعل مستمر .

(ب) أنه بتأكيده لأهمية المجتمع كمصدر للأهداف التربوية قد أغفل حاجات المتعلم ، فاختلف بذلك عن الحركات التربوية الكبرى التى اتجهت إلى جعل المتعلم وحاجاته مركزا للعملية التربوية .

(ج) أنه أعطى للأسرة مكانة ثانوية بالنسبة للمدرسة فى عملية التنشئة الاجتماعية فى الوقت الذى تؤكد فيه الدراسات الحديثة أن دور الأسرة فى هذه العملية ينبغى ألا يقل أهمية عن دور المدرسة .

(د) أن المجتمع ليس إلا مصدرا واحدا من مصادر القيم الأخلاقية وأن الكتب السماوية هى أسمى هذه المصادر وأعلاها شأنا . وهذا ما أغفله دوركيم .

(هـ) أنه يقلل من شأن علم النفس بالنسبة للعملية التربوية ، ويضعه فى مرتبة ثانية بعد علم الاجتماع ، بالرغم من أهميته فى تفسير عملية التعلم .

٤ — أكد دوركيم أهمية علم الاجتماع فى الدراسة التحليلية للعلاقة بين التربية والمجتمع : بل إنه بوضعه أسس المنهج العلمى فى علم الاجتماع ، قد أثبت عمليا أهمية البحث الميدانى للظواهر الاجتماعية وللتربية بالتالى باعتبارها ظاهرة اجتماعية .

٥ — قدم دوركيم نمطا أو نموذجا مثاليا يمكن فى ضوئه تحليل العلاقة بين التربية وبين التغير الاجتماعى فى المجتمعات المعاصرة . ولعل أسلوبه فى معالجته للمحتوى الاجتماعى للعملية التربوية يذكرنا بأسلوب بطس R.F. Butts حينما تناول تاريخ التربية الغربية والأمريكية فى إطاره الثقافى .